

السنة الأولى ليسانس (أدب عربي)

مادة: النص الأدبي القديم

السداسي الثاني (نثر)

المحاضرة رقم: 12

المجموعة "أ" + المجموعة "ب"

الأستاذ عبد القادر شريف حسني بالتنسيق مع الأستاذ إبراهيم بوشريحة

محاضرة أدب الرحلة في الأندلس والمغرب

أدب الرحلة في الأندلس والمغرب:

عرفت الرحلات في المغرب والأندلس اهتماما واسعا، نظرا لحاجة هذه البلاد لها، وخاصة تلك المتعلقة بالحج، وطلب العلم، وهو ما كان سببا هاما في تطور هذا الفن، وازدهاره حتى أصبح فنا قائما بذاته، إذ أغلب الرحالة يتجهون إلى بلاد المشرق، وغيرها من البلاد لتدوين رحلاتهم بأسلوب مميز خص هذه الرحلات اعتمد فيه صاحبه على مشاهداته، ودقة وصفها، وهو أسلوب اشترك فيه جميع الرحالة على اختلاف مستوياتهم، وأن الاختلاف القائم بين هؤلاء الرحالة يتمثل بعض الخصائص التي تميز رحلة عن غيرها من الرحلات، ويعود هذا إلى طبيعة الرحالة في حد ذاته، لأن "أدب الرحلة ليس بحثا في التاريخ ولا وصفا جغرافيا.. كما أنه ليس قصة قصيرة، أو رواية، أو قصيدة شعر، وإنما هو هذا وذاك، ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب... وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع، وسبر غورها العميق."<sup>1</sup>

ورغم هذا التطور الذي شهدته هذا الفن في العصر الأندلسي إلا أنه لم يلق الاهتمام المطلوب من قبل الباحثين، فهناك الكثير من الرحلات المدونة -حسب اطلاعنا- لم تخرج إلى الحياة بعد، ومازالت حبيسة الرفوف والمكتبات، بالرغم مما يقدمه هذا الأدب من خدمات للعلم والعلماء، ومن هذا المنطلق بات على المهتمين بالأدب العربي أن ينفضوا هذا الغبار المتراكم، والمتراكب على هذا الأدب بفعل أو بآخر، وعليه فإن الحفاظ على هذا الجنس هو حفظ للتراث، وخاصة أن أهل الأندلس قد قدموا الكثير لهذا

<sup>1</sup> - عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، دمشق، 2005، ص: 6.

الأدب، وساهموا في كل المجالات فكان منهم العلماء والفقهاء، ونبغوا في الأدب في شقيه الشعري والنثري، فازدهر عندهم الموشح، وظهر الزجل<sup>(1)</sup>، وكثر أدب الرحلة، وغير ذلك.

والحديث عن علاقة الأندلس بالمغرب يجرنا إلى الحديث عن العلاقة القائمة بين الحاضرتين، وما نتج عنهما من امتزاج لغوي وجنسي، أدى إلى عدم التفريق بينهما في كل المجالات، ومن ذلك هذا الفن الأدبي الذي نتحدث عنه، أين يصعب التفريق بين الأندلسي والمغربي ولو أردت تبيان هذا من ذاك، لصعب عليك الأمر واختلط، من شدة التقارب بين أهل المغرب وأهل الأندلس، فابن خلدون مثلاً من أصول عربية، ولد في تونس وفيها نشأ وترى، ويلقب بالإشبيلي، وغيره الكثير.

وليس غريباً أن يربط الأدب المغربي بالأدب الأندلسي، لأن الوحدة بين البلدين كانت قائمة على التبادل العلمي، والتجاري، فكانت الأندلس تثقف المغاربة، وبالمقابل كانت المغرب تحمي الأندلس من العدو الصليبي<sup>(2)</sup>، وقد ذكرنا هذا في حديثنا عن يوسف بن تاشفين.

وقبل أن أشير إلى القيم العلمية والأدبية لهذه الرحلات في الأندلس والمغرب، لابد أن ألفت النظر إلى الدور الذي لعبه "بعض أعلام الفكر الأندلسي الذين كان لهم (مهمة) تنشيط تلحم الحركة، والذين في وجودهم وأمثالهم دليل قاطع ضد من زعم أن المرابطين خنقوا الفكر في الأندلس"<sup>(3)</sup>، فقد كانت شمال إفريقيا هي الأخرى للعلم والعلماء، فكانت تاهرت وبجاية، وكانت الرباط وفاس، وكانت القيروان، "ولم يكن المرابطون أقل براً بالأدب وأهله منهم بالعلم والعلماء. وليس أدل على نفي ما يتهمهم به خصومهم في مجافاة الأدب وعدم الاهتمام به، من هذه الرعاية الكريمة التي أولاهها أمراؤهم لعلية الأدباء، من كُتاب وشعراء، منذ أن توطدت فيه دعائم ملكهم. ولقد كانت عنايتهم بأدباء الأندلس على الخصوص فائقة الحد، حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم يُنط به عمل في بلاط أمير المسلمين"<sup>(4)</sup> يوسف بن تاشفين. وأن ما اجتمع له ولابنه من أعيان الكُتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه لأحد في عصر من العصور<sup>(5)</sup>، وكتب التاريخ تشهد على ذلك، هذا بالإضافة إلى ما ضاع من كتب بفعل الحروب والاستعمار الذي أتى على شمال إفريقيا بعد ذلك، وما انجر وراء هذه الحروب من إتلاف للمكتبات، وقتل للعلماء، وطمس

<sup>1</sup> - ينظر عباس الجراري، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ج1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط2، 1982، صص: 98، 99.

<sup>2</sup> - ينظر المرجع نفسه، ص: 95.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص: 91.

<sup>4</sup> - عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ص: 78.

<sup>5</sup> - ينظر عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1949، ص: 164.

للهوية الإسلامية. "ولا إنكار (...)" أن المغرب أفاد من الأندلس سواء في هذه المرحلة أو بعدها، وأنها أشعت عليه إشعاعات مختلفة وفي جميع الميادين ومختلف الفترات، وإن كنا لا ننكر كذلك أن المغرب في وقت ما أنقذ الأندلس من الضياع وتبادل وإياها الكثير من العطاء"<sup>(١)</sup>، على كل المستويات. وأن "حضارة الأندلس لم تقف عند شبه الجزيرة الأيبيرية، فقد امتدت وفاضت حتى شملت المغرب العربي إلى حدود تونس، والكثير جدا من ثغور المغرب أنشأها الأندلسيون: تطوان وتلمسان ووهران وتنس وجزائر بني مزغنا -التي تعرف اليوم بمدينة الجزائر- وغيرها كثير"<sup>(٢)</sup> من المدن التي وصلها إشعاع الأندلس، ففي فاس نجد نصيب الأندلسيين في بنائها، وتنبئك مكناس بأثر العمارة"<sup>(٣)</sup>، وفي كل أرجاء المغرب الكبير إلا وتجد أثرا لهذه الحضارة إن لم يكن في العمران، كان في العلم، وإن لم يكن فيهما كان في غيرها.

### القيم العلمية للرحلات الأندلسية والمغربية

ومن القيم العلمية التي قدمتها هذه الرحلات لأهل المغرب والأندلس، أنها دونت الكثير من العلوم الفقهية والدينية، ونقلتها من حواضر العلم والعلماء، إلى بلادهم، فكانت طلبه هذه البلاد دون عناء السفر إلى طلب العلم من المشرق، أين تحول هؤلاء الرحالة إلى مدرسين لطلبة العلم في كل من المغرب والأندلس. كما وقد تميزت هذه الرحلات بقيمتها الثقافية والاجتماعية، لما نقلته من حياة الأمم الأخرى؛ كالعادات والتقاليد، ومظاهر الحياة السياسية في البلاد الإسلامية، وغيرها، وعلى هذا الأساس هناك من قسم الرحلات إلى ثلاث أنواع، وهي:

- 1- "أن تسافر..."
- 2- أن تقرأ الكتب.
- 3- أن تقرأ كتب الرحلات"<sup>(٤)</sup>.

والسفر هنا لا يعني أنه دائما يقدم النتائج المرجوة، لأن هنا الكثير ممن سافر، وعاد كما سافر لم يدون، ولم يرو ولم يقدم شيئا لهذا الأدب، ولا للبشرية، ولهذا أغفل التاريخ هذه الطبقة من الناس، ولم يذكرها، لأنها لم تقدم له شيئا يذكر، لأن الذي خلّد هؤلاء العلماء والأدباء والرحالة، هي كتبهم التي كتبوها، ورواياتهم التي رووها إلى غيرهم.

<sup>1</sup> - عباس الجارري، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، المرجع نفسه، ص: 53.

<sup>2</sup> - حسين مؤنس، رحلة الأندلس "حديث الفردوس الموعود"، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط2، 1985، ص: 23.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص: 23.

<sup>4</sup> - أنيس منصور، أعجب الرحلات في التاريخ، ج1، سلسلة جدران المعرفة، مطابع الأهرام التجارية، مصر، 2006، ص: 3.

## أسلوب الرحلات المغربية والأندلسية

ركّز مدونو الرحلات في هذا العصر من الأندلسيين والمغاربة على اعتماد "الأسلوب العلمي السليم القائم على المشاهدة الواقعية، وابتعادهم عن الأسلوب الخيالي القصصي. وذلك عائد إلى كونهم شهود عيان لكثير من الأحداث الواردة في كتبهم، إلى جانب المناقشة العميقة لعدد من القضايا المدعمة بالوصف القائم على المشاهدة أولاً ثم بإيراد ما يدور حولها من أقوال تطرقت إليها كتابات العلماء السابقين"<sup>(١)</sup>، وتطعيم رحلاتهم بهذه الكتابات والآراء. ومما ميز أسلوبهم كذلك اعتماد التاريخ في تدوين هذه الرحلات، مع الاطلاع على كتب الرحالة السابقين<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا الأساس نجد أن "نمط كتب الرحلات المغربية والأندلسية فن قائم بذاته زاخر بالكثير من المعلومات التي تهم المؤرخ والجغرافي وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع. فأهميتها تتجلى بما تحويه من مادة علمية عن تلك النواحي، مكتوبة بأسلوب أدبي منسق خال من الأساطير إلا ما ندر، والمعتمد على المشاهدة والسماع في ملاحظة مختلف الظواهر ومن ثم تدوينها"<sup>(٣)</sup>، ووضعها بين أيدي العلماء من التخصصات المختلفة وخاصة تلك التي ترتبط بالجغرافيا، هذا بالإضافة إلى تلك الرحلات التي تساعد على جمع الخراج، واكتشاف البلاد البعيدة، ونشر الدعوة، وغير ذلك.

## الوصف في الرحلات الأندلسية والمغربية

ارتكزت رحلات أهل الأندلس والمغرب، على وصف كل المشاهدات، وخاصة تلك التي تعلقت بوصف الأماكن المقدسة، في مكة والمدينة، فتقاطعت أغلب هذه الرحلات في وصف بيت الله الحرام؛ فوصفوا المساجد، وأماكن العبادة، والأسواق، والشوارع، والعادات والتقاليد، والمذاهب الدينية... هذا بالإضافة إلى وصف الأماكن المدنسة في البلاد الأخرى التي زاروها، وبالتالي أصبحت هناك علاقة ترابط بين الرحالة والمكان الذي زاره، وقد تمحورت هذه العلاقة في مضامين عدة انبثقت منها ملامح الآخر الساكن لهذا المكان، كما كانت هذه العلاقة محاولة لاستكناه صورة الآخر، إذ إن التصوير المكاني يقوم على بعدين أساسيين:

1- الأول منهما دلالي استقرائي؛ أي ما تشي به الطبيعة المكانية من إشارات وملامح ذات بعد عميق ومؤثر في استقراء الآخر من كافة النواحي.

<sup>1</sup> - نواب، عواطف محمد يوسف، الرحلات المغربية والأندلسية. مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين: دراسة تحليلية نقدية مقارنة، مكتبة الملك الفهد الوطنية، الرياض، 1996، ص: 87.

<sup>2</sup> - ينظر المرجع نفسه، ص: 87.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص: 92.

2- والثاني جغرافي يعتمد على وصف المكان لخلق التفاعل بين المتلقي والمكان المقصود، وهذا يتم من خلال دقة الوصف، والقدرة العالية في التصوير لاستثارة كوامن الحس بحيث تسهل عملية الربط بين المكان ونأزله (الأخر) محور الوصف.<sup>(١)</sup>

ولم يكن تركيز هذه الرحلات على وصف مناطق الأندلس والمغرب وحالاتهما الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية، بل كان أغلب تركيزها على تسجيل ووصف المحيط الذي وطئته أقدام أصحابها، وهو وصف مستمد من الواقع الذي عايشه هؤلاء، باعتبار أن عملية التدوين كانت تنطلق من انطلاق الرحلة وتعتمد على المشاهدة والاتصال المباشر ولا تعدوها إلى الخيال<sup>(٢)</sup>، وتتوقف هذه العملية عند العودة من الرحلة.

## نماذج من رحلات الأندلس والمغرب:

### 1- الأندلس:

عرفت الأندلس الكثير من الرحالة الذين اشتهروا بكتاباتهم العلمية والأدبية، وقد وقع اختيارنا على كل من ابن جبير<sup>(٣)</sup>، والغرناطي<sup>(٤)</sup>؛ أما الأول فهو ابن جبير الكنايني الأندلسي، وينتمي إلى أسرة عربية عريقة، وقد ولد ببلنسية، وبه تأثر كل من ابن بطوطة والعبدري. وأن ابن جبير هو من أصل لأدب الرحلة بصياغة أدبية عالية، حتى ليقال أن هذا الأدب قد بدأ معه، ويقال أيضا أن مؤسس قواعد هذا الفن هو أبو بكر محمد بن عربي (468 - 543)، وأصله من إشبيلية، ثم جاء بعده ابن جبير<sup>(٥)</sup>. واعتبرت رحلته من أعظم الرحلات في تلك الفترة، واهتم بها المستشرقون، أمثال "وليم رايت"، و"دوزي" وغيرهما، وله ديوان شعر،

<sup>1</sup> - بلال سالم الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، دكتوراه، جامعة مؤتة، الأردن، 2008، ص: 72.

<sup>2</sup> - عبد الله بن عثمان الياقوت، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، دكتوراه، جامعة أم القرى، السعودية، 2001، ص: 13.

<sup>3</sup> - ابن جبير: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنايني، الرحالة الأندلسي شاطبي بلنسي، ولد سنة 540هـ/1145م ببلنسية شرقي الأندلس، ينسب إلى بلنسية لأنه ولد فيها، وإلى شاطبة لأنه أقام فيها. ينظر محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تح: علي كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2008، ص: 14.

<sup>4</sup> - الغرناطي: هو محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الأندلسي الإقليشي الغرناطي القيرواني. ولد بغرناطة عام 473هـ وعاش في مدينة إقليش، وقد كان جده الرابع يقيم بالقيروان ثم ارتحل إلى الأندلس، وقد أشار أنه أندلسي غرناطي. ينظر أبو عبد الرحمن بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي، تحفة الأبواب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط1، 1993، ص: 7.

<sup>5</sup> - ينظر حسني محمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، لبنان، ط2، 1983، ص: 13.

ومجموعة من الرسائل الثرية، إلا أنه لم يشتهر بما كتب في الشعر والنثر شهرته في أدب الرحلة<sup>(١)</sup>، ومما كتب واصفا "للبيت العتيق"، ما يلي:

"ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد، وله التنزيه الأعلى، وحمام الحرم لا تحصى كثرة، وهي من الأمن بحيث يضرب بها المثل. ولا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة، ولا تحل فيه بوجه ولا على حال. فترى الحمام يتجلى على الحرم كله، فإذا قربت من البيت عرّجت عنه يمينا أو شمالاً والطيور سواها كذلك. وقرأت في أخبار مكة أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه، فإذا أن يموت في حينه أو يبرأ. فسبحان من أورثه التشريف والتكريم." <sup>(٢)</sup>

وأما **الغرناطي**؛ فقد تلقى العلم في مدينة أقليمش، ثم رحل إلى المشرق، على عادة العلماء الأندلسيين. وقد كان متمتعاً في بغداد برعاية وعناية الوزير الأديب الفقيه يحيى بن هبيرة، الذي أكرمه وأمده بالمال، فألف لمكتبته كتاب: **"المغرب عن بعض عجائب المغرب"**، وبالرغم من أنه كان محدثاً وفقياً، إلا أنه ألف في الغرائب والعجائب، ومن مؤلفاته **"تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"**<sup>(٣)</sup>، وفيه تحدث عن العجائب والغرائب التي وقف عليها، والتي استقاها من الرواة، وبعد الاطلاع على محتويات الكتاب رأينا أن نقدمه هنا للباحثين للاطلاع على ما كتب، وفي الوقت نفسه هناك من يرى بأنه من الصعب تصنيف الغرناطي بين الجغرافيين العرب، ولو أنه قدم بعض المعطيات الجغرافية، وأنه ليس من طراز الرحالة الذين سجلوا ما صادفهم، ولو أنه سجل بعض المشاهدات الغربية والمثيرة ببساطة وأمانة، وعفوية تقرب من السذاجة، وهو الاعتبار الذي دفع البعض إلى وصفه بضعف روح النقد، وقلة التمهيد لما يجمعه من الحكايات<sup>(٤)</sup>، إلا أننا -وحسب ما قيل فيه- قد لاحظنا شيئاً من الأمانة في تقديم ما يرى، وما يروي. ومع ذلك رأينا أن نذكره هنا حتى نقدم للمتلقين كتابات السلف على اختلاف أساليبهم، وتضارب أفكارهم بين الحقيقة والخيال، وله في مدينة سبتة، الوصف التالي:

"سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب على ساحل البحر في بر البربر. وهي ضاربة في البحر داخلة فيه. قال أبو حامد الأندلسي: "عندها الصخرة التي وصل إليها موسى، وفتاه، يوشع عليه السلام، فنسيا الحوت المشوي، وكانا قد أكلا نصفه فأحيا الله تعالى، النصف الآخر، فاتخذ سبيله إلى البحر عجبا..." <sup>(٥)</sup>.

<sup>١</sup> - ينظر سيد أحمد النساج، مشوار كتب الرحلة (قديماً وحديثاً)، مكتبة غريب، القاهرة، دت، دط، ص: 20.

<sup>٢</sup> - محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تح: علي كنعان، دار السويدي، أبو ظبي، ط 1، 2008، ص: 74.

<sup>٣</sup> - ينظر عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، المطبعة العلمية، دمشق، ط 1، 1984، صص: 368، 369.

<sup>٤</sup> - ينظر الغرناطي، تحفة الألباب، ونخبة الإعجاب، المرجع نفسه، ص: 20.

<sup>٥</sup> - الغرناطي، المرجع نفسه، ص: 174.

وفي هذا المجال يمكن لنا أن نشير إلى أن ما تمّ نقله، كان من باب توصيل المعلومة على اختلاف مصادرها، وهي موثقة بأمانة، ليعلم الباحث والمتلقي على حد السواء، ما حوته كتب الرحلات من غريب وعجيب، وطريف ونادر، ومن دهشة واستغراب.

## 2- المغرب:

شهد المغرب هو الآخر الكثير من الرحلات التي دونها التاريخ، إلا أن أغلبها ضاع من يد الزمن بفعل أو بآخر، نظراً للظروف التي شهدتها هذه المناطق من استعمار ونهب للممتلكات وسرقة للتراث، وحرق للمكتبات، وقهر للعلماء، وعليه فإن الحديث في هذا المجال يطول على الرحلات التي تمّ تدوينها، وإذا كان لا بد من الحديث عن الرحالة فأولى بذلك ابن خلدون صاحب كتاب "رحلة ابن خلدون"؛ "وهو عبارة عن مذكرات شخصية كان يدونها يوماً فيوماً وأطلق عليها اسم "التعريفات بابن خلدون" وفيها ترجمته ونسبه وتاريخ أسلافه، وشرح في هذه المذكرات ما عاناه في حياته ورحلاته في المشرق والمغرب، وتتضمن هذه المذكرات مراسلات وقصائد نظمها، وتنتهي حوادث هذه المذكرات سنة 807هـ، أي قبل وفاته بعام واحد"<sup>(1)</sup>. ولم تقتصر كتابات ابن خلدون في رحلته هذه على سيرته الذاتية، وإنما وصف الكثير من أحوال المجتمعات التي زارها، فتحدث عن الرسائل، والتقارير الرسمية، وعن الخطابة، وعن التدريس، وغير ذلك. و"قد عاش في بلاد المغرب وتقلب في مناصبها السياسية والعلمية وعاصر كثيرا من أحداثها وتقلباتها في مراكش وتونس والأندلس ومصر. واطلع على دخائلها وأسرارها. وتولى كتابة السر في بعضها، ونال مقاما رفيعاً ونفوذاً عظيماً وتقلب عليه أحوال شتى ونكب بموت أهله فزادته المصائب عبء وصقلت قريحته الفلسفية."<sup>(2)</sup>

وقد شهد التاريخ على نبوغ ابن خلدون في الأدب، وخاصة أنه من أئمة التجديد في أساليب اللغة العربية، فقد سلك في كتاباته، "أسلوباً جديداً يمتاز بالسهولة والوضوح والتعبير الدقيق عن الحقائق، وقوة التدليل، وترباط الفكرة، وحسن الأداء والتنسيق، وتحير المفردات والتراكيب العربية السليمة، والتخلص من قيود السجع ومحسنات البديع التي كان النثر العربي مكبلاً بها في هذا العهد. ولم يكن أسلوبه هذا في الحقيقة جديداً كل الجدة؛ وإنما كان إحياءاً للأسلوب العربي الأصيل الذي امتازت به العربية في عهدها الذهبية

<sup>1</sup> - عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشيلي، رحلة ابن خلدون، تعليق: محمد بن تاويت الطنجي، تحرير: نوري الجراح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص: 3.

<sup>2</sup> - الإشيلي، المرجع نفسه، ص: 8.

الأولى.<sup>(١)</sup> وقد وصف ابن خلدون الأسلوب المعتمد سابقا وصفا دقيقا، بأن سابقه قد مالوا إلى استعمال أساليب الشعر في المنشور؛ فأكثر من الأسجاع، والمحسنات، وتقفية العبارات، حتى أصبح الفرق الوحيد بين الشعر والنثر، هو الوزن.<sup>(٢)</sup>

والحديث عن ابن خلدون يطول، فتاريخه زاهر لا يحتاج إلى التعريف به، وعلى هذا الأساس وقع الاختيار على اسمين من الأسماء، مع عدم التركيز على ابن خلدون، بسبب الاستفاضة في دراسته من قبل الدارسين، ومن وقع عليهم الاختيار، نذكر الشريف الإدريسي وابن حمادوش.

### 1- الشريف الإدريسي:

محمد الإدريسي<sup>(٣)</sup>، ينتهي نسبه إلى الأدارسة، وهو صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، فقد عرف بصناعة الخرائط، إذ اعتبره بعض المؤرخين بأنه أعظم جغرافي في العصور الوسطى على الإطلاق، جنبا إلى جنب ومؤلف كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، المسعودي<sup>(٤)</sup>، وقد اعتبرت رحلاته بمثابة الرحلات العلمية لتدعيم دراساته في التاريخ والجغرافيا<sup>(٥)</sup>، وغيرهما ممن كانت لهم اليد البيضاء على هذا الجنس الأدبي.

ومما يمكن أن نقدمه عن الإدريسي وصفه لمدينة الجمال؛ تاهرت، قائلا:

"وبين مدينة تاهرت والبحر أربع مراحل ومدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين إحداها قديمة والأخرى محدثة والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور وهي على قنة جبل قليل العلو وبها ناس وجمل من البربر ولهم تجارات

<sup>1</sup> - علي عبد الواحد وافي، عبد الرحمن بن خلدون، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته، دار مصر للطباعة، دت، دط، ص: 244.

<sup>2</sup> - ينظر المرجع نفسه، ص: 245.

<sup>3</sup> - الشريف الإدريسي: هو أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي بن عبد الله الشهير بالإدريسي، ولد بسبتة، ميناء المغرب الأقصى على البحر الأبيض المتوسط، عام (493هـ/1100م)، وتنسب أسرته إلى الشرفاء من الأدارسة، إلا أن صلة عائلته لم تنقطع عن الأندلس، ولذلك هناك من يسميه بالأندلسي. وبالأندلس تلقى العلم، ودرس هناك العلوم والرياضيات، واهتم بدراسة التاريخ والجغرافيا، ثم اهتم بالرحلات وقد بدأ أسفاره في سن مبكرة. ينظر عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، المطبعة العلمية، دمشق، ط1، 1984، ص: 388.

<sup>4</sup> - المسعودي: (.... - 346هـ/957م)، وهو علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود، مؤرخ، رحالة، بجائة، من أهل بغداد. أقام بمصر وتوفي فيها. قال الذهبي: عداده في أهل بغداد، نزل مصر مدة، وكان معتزليا، من تصانيفه "مروج الذهب"، "أخبار الزمان ومن أباده الحدثان"، وله عدد من المصنفات الأخرى، وهو غير المسعودي الفقيه، وغير شارح المقامات الحريرية. ينظر خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دت، دط، ص: 277.

<sup>5</sup> - ينظر سيد أحمد النساج، مشوار كتب الرحلة، المرجع نفسه، ص: 70.



وبضائع وأسواق عامرة وبأرضها مزارع وضياع جمّة وبها من نتاج البراذين<sup>(١)</sup> والخيّل كل حسن وأما البقر والغنم بها فكثيرة جدا وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة مباركة وبمدينة تاهرت مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون بها ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفواكه الحسنة وبالجملة إنها بقعة حسنة.<sup>(٢)</sup>

## 2- ابن حمادوش<sup>(٣)</sup>:

أما الرحلة الحمادوشية فتنسب إلى الرحالة ابن حمادوش الجزائري، وقد سماها: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، وهي رحلة تعددت موضوعاتها بين الفقه والتوحيد، والتصوف والرياضيات، والقصص والخرافات، ونحو ذلك<sup>(٤)</sup>، ولنا أن نقدم جزءاً منها:

نموذج من رحلة ابن حمادوش: وهنا علينا أن نشير إلى أننا سنقدم النص كما ورد في أصله، وبلهجته، وبحرفه.

### المؤلف عند جبل طارق:

"وفي هذه الساعة كنا على ظهر البحر، قريبا من غرناطة، وكان عاشر خروجنا في الجزائر، والاثني عشر<sup>(٥)</sup> هادي عشرنا<sup>(٦)</sup>. ويوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا المراسي بجبل طارق، ونحن على وجل، إذا به خرج لنا راييس المرسه<sup>(٧)</sup> فسلأنا، فلما أخبره راييسنا افرانصيص<sup>(٨)</sup> وأنه في كروة<sup>(٩)</sup> أهل الجزائر: الحاج عبد القادر بن كرشال وأبي صابر التلمساني وحاج عبد السلام السفاقسي، قال له أبعد عن المراكب ولا ينزل أحد إلى البر، لما كان في أهل الجزائر من وبي<sup>(١٠)</sup>، ولم يدر بأن أحد تجاره مضروب بها راقد. فخرجنا إلى الموضع الذي أمرنا. وبقينا هناك بقية يومنا والخميس<sup>(١١)</sup>.

<sup>1</sup> - البرذون: يُطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخَلْقَة، غليظ الأعضاء، عظيم الخوافر. معجم المعاني الجامع.

<sup>2</sup> - الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، صص: 255، 256.

<sup>3</sup> - ابن حمادوش: عاش ابن حمادوش عبد الرزاق بن محمد بن محمد، المعروف بابن حمادوش الجزائري، خلال القرن 12 هـ 18 م ولد بالجزائر سنة (1107هـ/1695م)، وتوفي بعد حوالي 90 سنة في مكان وتاريخ مجهولين، وقد أخذ يجوب العالم منذ العشرين من عمره، حيث بدأ بالحج، ثم إلى المغرب الأقصى والمشرق في مناسبات أخرى. ينظر عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش، المسماة: (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص: 9.

<sup>4</sup> - المصدر نفسه، ص: 19.

<sup>5</sup> - حادي عشرنا: كما هي في الأصل.

<sup>6</sup> - كتبت هكذا في الأصل، ويقصد بها: راييس المرسى، مدير الميناء.

<sup>7</sup> - فرانصيص: أي أن قائد السفينة من الفرنسيين.

<sup>8</sup> - "الكروة والكراء: أجر المستأجر، كراهه مكاراه وكراهه واكثره واكثراني دابته وداره، والاسم الكرو بغير هاء. ينظر مادة" كرا. ابن منظور، لسان العرب، المعجم اللكتروني.

<sup>9</sup> - وبي: وكتبت أيضا وباء.

<sup>10</sup> - ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص: 30.

## قيمة الرحلة الحمادوشية:

- ذكر محقق الكتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله جملة من القيم التي امتازت بها هذه الرحلة، كما لم يغفل سيئاتها، ومما يمكن أن نلخصه في هذا المجال ما يلي:
- 1- أنها جزء من التراث الجزائري العربي الإسلامي.
  - 2- تحفل بالمعلومات السياسية والفكرية والاجتماعية، من خلال الحديث عن معاصريه.
  - 3- مصدر من مصادر المؤلف بعد أن ضاعت مؤلفاته الأخرى.
  - 4- تحتوي عددا من الوثائق الهامة في التاريخ الاجتماعي والأدبي والديني.
  - 5- نادرة من نواذر أدب الرحلة.

وهذا لا يعني هذا العمل من بعض الثغرات والسلبيات، التي قدمها محقق الكتاب، وقد حصرها في العناصر التالية:

- 1- تفتقر إلى وحدة الموضوع، باعتبارها خليط من المذكرات والأفكار، والأحداث، وغير ذلك.
  - 2- مليئة بالاستطراد الثقيل.
  - 3- أن أغلب نصوصها تنضح بالخرافة والتخلف العقلي<sup>(1)</sup>.
- وتأسيساً على ما تقدم وأمام كل هذه الدوافع، نجد أن مكنتات المغرب، تزخر بعدد هائل من الرحلات، منها الحجية ومنها العلمية، ومنها الاستكشافية وغير ذلك، ومنها المطبوعة والمشهورة بين الناس، أو تلك التي لا زالت مخطوطة وحبيسة جدران المكتبات العامة والخاصة<sup>(2)</sup>، إلا أن الاختيار الذي تم، قد وقع على نموذجين أحدهم أشهر من الآخر، والسبب في ذلك لا يتوقف على الرحالة وعلى مستواه، ولا على أيهما الأشهر والأفضل، كما لا يعني هذا الاختيار نبوغ الأسماء المذكورة بقدر ما يعني محاولة الكشف عن بعض الأسماء التي لم تنل حظها من الدراسة، والحديث هنا على كل أدباء هذا الجنس.

## المغرب والأندلس في عيون الرحالة المشاركة:

### 1- المسعودي:

إن الحديث عن المغرب والأندلس في عيون المشاركة؛ حديث طويل، وقد دخلناه من باب كتاب: "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وفيه تحدث المسعودي عن عدد من البلدان التي زارها، وحتى التي لم

<sup>1</sup> - ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص: 24.

<sup>2</sup> - أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، تح: سعيد الفاضلي، سليمان قرشي، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2006، ص: 12.

يزرها. وقد عرف عنه أنه استقى المعلومات التي دونها في كتبه من قراءاته، ورحلاته، وفي هذا المجال فقد تحدث في كتابه هذا عن تاريخ الأندلس، وحكامها، وأثر المسلمين بعد فتحها، كما وصف مدنها وأنهارها، وعددها، وتحدث عن المغرب، وسكانها<sup>(1)</sup>، إلا أن التركيز الأكبر للمسعودي في نقله للمعلومة قائم على "معالجته تاريخ الأمم الإسلامية مسهباً أو مختصراً حسب رؤيته وتقديره لمقتضيات الظروف والأحوال، وجاءت روايته للتاريخ الإسلامي قائمة على التأريخ للسلالات الحاكمة في أغلب الأحوال ومدونة على شكل حولي في بعض الأحيان، بخلاف روايته عن تاريخ الأمم القديمة وغير المسلمة فقد كانت ثقافية في أغلب مظاهرها"<sup>(2)</sup>.

ومما يمكن تقديمه في هذا المجال من حديث المسعودي عن بلاد المغرب، وتبيان حدودها، قوله: "أرض المغرب، وهي بلاد تلمسان وتاهرت وبلاد فاس، ثم السوس الأدنى، وبينه وبين بلاد القيروان نحو ألفي ميل وثلاثمائة ميل، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى من المسافة نحو عشرين يوماً عمائر متصلة إلى أن تتصل بوادي الرمل والقصر الأسود، ثم يتصل ذلك بمفاوز الرمل التي فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التي سار إليها موسى بن نصير في أيام عبد الملك بن مروان ورأى فيها ما رأى من العجائب، وقد ذكر ذلك في كتاب يتداوله الناس، وقد قيل: إن ذلك في مفاوز تتصل ببلاد الأندلس، وهي الأرض الكبيرة."<sup>(3)</sup>، كما ذكر ذلك الغرناضي في كتابه "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب".

## 2- المقدسي<sup>(4)</sup>:

قسّم المقدسي الأرض إلى أقاليم عربية وأخرى أعجمية على أساس اللغة والدين، وكان عدد الأقاليم العربية ستة - كما سبق وأن ذكرنا - ومن الأقاليم العربية إقليم المغرب الذي ضمّ المغرب العربي والأندلس، وقد وصفه من خلال النص التالي:

### نموذج من حديث المقدسي عن إقليم المغرب:

هذا إقليم بهي، كبير سري، كثير المدن والقرى، عجيب الخصائص والرخاء، به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة وبه جزائر عدّة مثل الأندلس الفاضلة العجيبة وتاهرت الطيبة الزينة وطنجة البلدة البعيدة، وسجلاسة المختارة الفريدة، وإصقلية الجزيرة المفيدة، أهلها في جهاد دائم، ثم الغنى فيه سالم، به كالبصرة مدن عدّة ولهم أيضاً في الخير رغبة، وللسلطان عدل ونظر وحسبه، متصل بالبحر خير جار، وخير قوم لكلّ سائر وماتر، قد غاب في الزيتون مدنه، وبالتين والكرمات أرضه،

<sup>1</sup> - ينظر أبو الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2005، صص: 125، 128.

<sup>2</sup> - سليمان بن عبد الله المديد السويكت، منهج المسعودي في كتابة التاريخ، جامعة الإمام بن محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط 1، 1986، ص: 380.

<sup>3</sup> - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المصدر نفسه، ص: 127.

<sup>4</sup> - المقدسي أشرنا إليه سابقاً من هذه المحاضرات والأعمال الموجهة.

يجرى خلالها الأنهار، ويملاً غيطانها الأشجار،، ألا إنه بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك في زاوية الإسلام موضوع، وبعضه خلف البحر مقطوع،، فلا فيه راغب، ولا له ذاهب،، ولا عنه سائل، ولا يفضلّه قائل،، لم يخرج عالماً مذكوراً، ولا زاهدا مشهوراً،، إلا القليل ثقلأ وإن كانوا مستورين، بخلاء وإن كانوا منعمين،، وهذا شكله ومثاله وقد جعلنا المغرب مع الأندلس كهيطل وخراسان غير أنّا لم ندخل الأندلس فنكورها، فأول كورة من قبل مصر برقة ثم إفريقية ثم تاهرت ثم سجلماسة ثم فلس ثم السوس الأقصى ثم جزيرة إصقلية تقابل إفريقية والأندلس وراء البحر على ارض الروم.

...و أما تاهرت فهي اسم القصة أيضا ومن مدنها يمة تاغليسية قلعة ابن الهرب هزارة الجعبة غدير الدروع لماية منداس سوق ابن حبله مطاطة جبل تجان وهران شلف طير الغزة سوق إبراهيم رهباية البطحة الزيتونة تما يعود الخضراء واريفن تنس قصر الفلوس بحرية

... تاهرت هي اسم القصة أيضا هي بلخ المغرب قد أحرق بها الأنهار والتقت بها الأشجار وغابت في البساتين ونبتت حولها الأعين وجلّ بها الإقليم وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب يفضلونها على دمشق واطخطوا وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا هو بلد كبير كثير الخير رحب رفق طيب رشيق الأسواق غزير الماء جيّد الأهل قديم الوضع محكم الرصف عجيب لو غير أنه متى يقاس المغرب بالشام وأين مثل دمشق في الإسلام

... تاهرت السفلى على واد عظيم ذات أعين وبساتين وفكان مسورة على واد جار ذات بساتين ويلل وجبل توجان على ما ذكرنا سواء وهران بحرية مسورة يقلعون منها الى الأندلس في يوم وليلة وسبته على زقاق بحر الأندلس ترى منها البرين وهي أحد المعابر المشهورة جبل زالاغ مدينة على جبل عال يطلّ على كورة فاس بناها خلوف بن احمد المعتلي، وبقية المدن أكثرهن مسورات ذات بساتين<sup>(1)</sup>.

<sup>1</sup> - المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991، صص: 215، 229.

## قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، لبنان، ط3، 2004.
- 2- أبو الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005.
- 3- أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، تح: سعيد الفاضلي، سليمان قرشي، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2006.
- 4- أبو عبد الرحمن بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط1، 1993.
- 5- أنيس منصور، أعجب الرحلات في التاريخ، ج1، سلسلة جدران المعرفة، مطابع الأهرام التجارية، مصر، 2006.
- 6- بلال سالم الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، دكتوراه، جامعة مؤتة، الأردن، 2008.
- 7- حسني محمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، لبنان، ط2، 1983.
- 8- حسين مؤنس، رحلة الأندلس "حديث الفردوس الموعود"، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط2، 1985.
- 9- خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دت، دط.
- 10- سليمان بن عبد الله المديد السويكت، منهج المسعودي في كتابة التاريخ، جامعة الإمام بن محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط1، 1986.
- 11- سيد أحمد النجاج، مشوار كتب الرحلة (قديماً وحديثاً)، مكتبة غريب، القاهرة، دت، دط.
- 12- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- 13- عباس الجارري، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1982.
- 14- عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تعليق: محمد بن تاويت الطنجي، تحرير: نوري الجراح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.
- 15- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، المطبعة العلمية، دمشق، ط1، 1984.
- 16- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش، المسماة: (لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال)، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.
- 17- عبد الله بن عثمان الياقوت، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، دكتوراه، جامعة أم القرى، السعودية، 2001.
- 18- عبد الله كئون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، نشر سنة 1938، ط3، 1975، بيروت.
- 19- عبد الواحد المراكشي، المُعْجَب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1949.
- 20- علي عبد الواحد وافي، عبد الرحمن بن خلدون، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته، دار مصر للطباعة، دت، دط.
- 21- عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، دمشق، 2005.
- 22- محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تح: علي كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ط1، 2008.

- 23- معجم المعاني الجامع.
- 24- المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991.
- 25- نواب، عواطف محمد يوسف، الرحلات المغربية والأندلسية. مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين: دراسة تحليلية نقدية مقارنة، مكتبة الملك الفهد الوطنية، الرياض، 1996.